الأدب وقضية فلسطين

بقلم الدكتور مهدي علام

للادب معنيان او اطلاقان ، الادب بمعناه الاخص ، وهو الذي اصطلح الكتاب من قديم على انه التعبير الجميل عن المعنى الاصيل،او الصورة الرائعة للفكرة الطارئة ، او الابداع في التعبير والتصوير لخواطر النفس . وهو في نطاق هذا المعنى لا بد ان يمس العاطفة الانسانية ، وان يهز مشاعرها ، فيجتذب قارئه او سامعه عن طريق الوجدان ، اكثر مما يقنعه عن طريق الحجة والبرهان . ويتمثل الادب بهذا المعنى في الشعر ، والقصة بانواعها ، والمقالة الادبية .

وهناك الادب بمعناه الاعم ، وهو يشمل الادب بمعناه الاخص ، مضافا اليه الوان اخرى من الكتابة ، تختلف عنه في عدم اعتمادها على العاطفة ، مستعيضة عنها اسلوبا اخر في اجتذاب القارىء او السامع، هو منطق الحجة والبرهان . ويدخل في نطاق هذا المفهوم للادبعديد من الكتابات في فروع المعرفة الانسانية المتصلة بالتاريخ والاجتماع والفلسفة والسياسة ، بل المتصلة بالادب نفسه . فالبحوث الادبية وتاريخ الادب ، والنقد الادبي ، لا استطيع ان اسميها ادبا بالمعنى الاخص ، لانها لا تقوم على جمال التعبير ، والابداع في التصوير ، والتحليق في الخيال ، واجتذاب القارىء بسحر الكلمة وروعة الاسلوب، وانما تعتمد على المنطق الذي يخضع الكاتب لمقاييس تختلف عن مقاييس الاديب ، وترتفع فوق اقناع الوجدان .

ونحن مع ذلك لا ندخل فينطاق الادب بمعناه الاعم كل ما يكتبفي التاريخ او السياسة او الفلسفة او الاجتماع ، فقد يصل ما يكتب في هذه الفروع الى درجة من الدقةفي التفكير ، والقصد في التعبير ، والخضوع لمقتضيات العلم ، الى درجة تقربه من العلوم الرياضية ، وتخليه من جمال التعبير الادبي ، فيصبح بذلك علما لا ادبا .

ومن اليسير تحديد خطوط فاصلة بين الادب بمعناه الاخص ، والادب بمعناه الاعم ، في كثير من الموضوعات ، ولكن بعض الموضوعات تتماس فيها الخطوط المحددة ، واحيانا تتداخل ، وربما اتحدت . فموضوعات القومية العربية ، والوحدة العربية،والاستعمار،والاشتراكية، والقنبلة الذرية ، وتحديد النسل ، يلتقي في كثير مما يكتب عنها الادب بمعناه الاخص والادب بمعناه الاعم، وقد ينفرد الادب الاخص بفنونه التعبيرية عنها شعرا ومقالة وقصة ومسرحية ، وقد ينفرد الادب الاعم بما يكتب فيها على اساس من العلم والتاريخ والاحصاء والحجج المنطقية .

والموضوع الذي اتحدث عنه في مؤتمركم الموقر ، وهو « قضية فلسطين » في مقدمة الموضوعات التي تناولها الادب بمفهوميه الخاص والعام . فعند الكلام عن « وعد بلفور » مثلا نلتقي بالادب القانوني الذي يحلل هذا الوعد ،ويفنده،على اساس قانوني تشعر فيه بالحجج والادلة من غير عرض تصويري بلاغي يدخله في نطاق الادب بالمفهوم الخاص . ومع ذلك نجد عرضا لهذا الوعد المشئوم يتناوله منالناحية السياسية ، متتبعا جذوره الاولى في الحركة الصهيونية ، وموضحا ما يترتب عليه من انتقاص وحرمان لاهل البلاد التي صدر بشانها هذا الوعد المشئوم ، انتقاص والى جانب ما كتب عن « وعد بلفور » من الناحية القانونية والناحية السياسية نجد عشرات من النصوص التي تناولته من الناحية الادبية ، معتمدة على جمال التصوير وقوة التاثير، كما يقول مثلا مصطفى وهبي التل في نغمة حزن واسى على مصير بلاده ، واهلها العرب من مسلمين ونصارى :

يارب ان (بلفور) انفذ وعده
كم مسلما يبقى وكم نصراني !
وكيان مسجد قريتي ، من ذا الذي
يبقي عليه اذا ازيل كياني ؟
وكنيسة العذراء ، اين مكانها
سيكون ؟ ان بعث اليهود مكاني ؟

او كما يقول ابراهيم الدباغ (ديوان الطليعة) في نغمة ساخطة غاضبة :

ما وعد (بلفور) من امر السماء ، ولا
في الجدب من ارضنا رزء لمحتطب ،
هل وعد (بفور) تشريع ، اذا فرطت
اغلوطة منه تدعو الناس للعجب ؟
ما حكمة بعد احكام السماء ، ولا
يرضى به بعد حكم الله غير غبي .
يحوطه باسمه القانون ، معتصما
بنصه ، ممعنا كالفيصل الذرب .

او كما يقول جورج صيدح في سمو وانفة :

مهلا خلائف (بلفور) الكريم لقد
جاوزتمو شاوه في حلبة الكرم
حامي حمانا ، حمانا الله منك ومن
وصاية فرضتها عصبة الامم
اكل شانك ارغام الشعوب ، وان
تقوم فيها مقام الخصم والحكم ؟
مهد النبوة تابى ان تدنسه ،
ان نام فيه بنو صهيون لم تنم .

او كما يقول ابراهيم طوقان في تهكم وسخرية :

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة
وختمنا لجندكم بالبساله .
وعرفنا بكم صديقا وفيا ،
كيف ننسى انتدابه واحتلاله !
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم
وعد (بلفور) نافذ لا محاله .
كل افضالكم على الراس والعين ،
وليست في حاجة لدلاله ،
ولئن ساء حالنا فكفانا
انكم عندنا باحسن حاله ،
غير ان الطريق طالت علينا
وعليكم ، فما لنا والاطاله ؟
اجلاء عن البلاد تريدون فنجلو ؟ ام محقنا والازاله !

وهكذا نستطيع ان نسوق الامثلة الكثيرة للموضوع الواحد في قضية فلسطين ، يتناوله الادب الخاص ، كما يتناوله الادب العام ، القانوني او السياسي . نجد ذلك في وصف المؤتمرات التي عقدت قبل النكبة ، وفي وصف مشروعات التقسيم قبل النكبة وبعدها ، ونجد ذلك في وصف الثورة العربية في مراحلها المختلفة ، كما نجدهفيوصف

حرب فلسطين ووقوع النكبة . وبجده في الحديث عن اللاجئين وقضيتهم ، وعن هجرة اليهود وتسللهم . ولن يتسع الزمن لاكثر من امثلة عابرة لما نقول .

فمن الادب القانوني ، الخاص بخلف الوعد من الانجليز ،الوثيقة الرابعة عشرة ، من « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » التي نشرتها جامعة الدول العربية . وفي هذه الوثيقة رد على بيان رئيس القضاة البريطاني في مؤتمر فلسطين الذي عقد في لندن سنة ١٩٣٩ وقد جاء فيها :

« ... ان مندوبي العرب ... يدهشهم ويؤسفهم ان يروا رئيس القضاة يأخذ بوجهة النظر القائلة ان فلسطين كانت مخرجة من المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى في مكاتبات مكماهون أن تعترف باستقلال الحكومات العربية وتؤيده . وهم يعتقدون – بعد درس البيان والمذكرة المشار اليهما بعناية – ان رئيس القضاة لعله فاته المدلول الحقيقي لمكاتبات تبودلت كلها باللغة العربية ، وقد تداول احد مندوبي العرب – رغبة في اصلاح هذه الاغلاط وازالة آثارها – مع الخبير الذي ندبته حكومة الملك ، وقدم اليه بيانا بالاغلاط التي وقعت في الترجمة ،وبما بين النص العربي والنص الرسمي الانجليزي من التفاوت ...

« قال رئيس القضاة في الفقرة السابعة من مذكرته . انه نظرا للصفة المقدسة لفلسطين فان من الواضح ان بريطانيا العظمى لم يكن لها حق ولا سلطة في سنة ١٦١٥ بخولانها أن تعد ، في حالة نجاح الحلفاء ، في ان ينتزعوا من الدولة العثمانية ارضا لها مثل هذه الاهمية للعالم المسيحي . وان يسلموها الى دولة اسلامية اخرى مستقلة من غير ان يحصلوا اولا على كل نوع من الضمانات لحماية الاماكن المقدسة، من مسيحية ويهودية ، وكفالة حرية الوصول اليها على الاقل بقدر ما كان ذلك مكفولا في عهد الاتراك انفسهم . ويستنتج سيادته من ذلك ان مما لا يتصور ان يكون السير هنري مكماهون قد قصد ان يعطي الشريف وعدا لا قيد فيه ولا شرط بان تكون فلسطين داخلة في منطقة الاستقلال العربي ...

ويقرر مندوبو العرب بكل احترام ان هذا الاستنتاج قائم على خطأ مادي في تصور الموقف ، وذلك اولا لان سلامة الاماكن المقدسة ، وحرية الوصول اليها ، منصوص عليهما بصراحة في معاهدة برلين المعقودة سنة ١٨٧٨ وهي معاهدة دولية معترف بها في اوسع نطاق ، ومقيدة بها تركيا ، وهي تسري من تلقاء نفسها على كل دولة ينتقل اليها ما كان للدولة العثمانية من سيادة في فلسطين . وثانيا لان نص المكاتبات نفسها يبين بجلاء ان المقرر ان تنتفع حكومات الدول العربية المستقلة بالمشورة البريطانية ، وبمساعدة الموظفين البريطانيين في اقامة نظام حكم صالح . وهذا وحده كان ضمانا كافيا ، ينتفي به كل خطر ، تقوم دولها . وثالثا لان السير هنري مكماهون وضع تحفظا صالحا فيما يتعلق بالاماكن المقدسة ، وذلك في كتابه المؤرخ في ٢٤ اكتوبر ١٩١٥ وفيه يقول : (ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي ،وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .) »

وحين يعالج الشاعر عبد الرحيم محمود هذا الموقف يقول :

واتى الحليف وقام في اعتابنا
متحيرا ، انا هدى المتحير ،
واستنصر العرب الكرام ، وانهم
غوث الطريد ونصرة المستنصر ،
واذا عتاق العرب تورى في الدجى
قدحا وتصهل تحت كل غضنفر .
واذا السيوف كأنهن كواكب
تهوى ، تلامع في العجاج الاكدر ،
رجحت موازين الحليف ، ومن تكن
معه يرجح بالعظيم الاكثر ،
وبنت لنا اسيافنا صرحا فلم
يحفظ جميل العرب ، يا للمنكر
غدر الحليف ، واي وعد صانه
يوما ، واية ذمة لم يخفر ؟
لما قضى وطرا بفضل سيوفنا
نسي اليد البيضاء ، لم يتذكر .

ويرد شاعر المهجر ، ايليا ابو ماضي ، على زعم قاضي قضاة بريطانيا في حماية الاماكن المقدسة المسيحية، في قصيدته التي يقول فيها:

ديار السلام وارض الهنا يشق على الكل ان تحزنا،
فخطب فلسطين خطب العلا ، وما كان رزء العلا هينا ،
سهرنا له فكأن السيوف تحز باكبادنا ها هنا ،
وكيف يزور الكرى اعينا ترى حولها للردى اعينا ؟
وكيف تطيب الحياة لقوم تسد عليهم دروب المنى ؟
بلادهم عرضة للضياع وامتهم عرضة للفنا .
يريد اليهود بان يصلبوها ، وتأبى فلسطين ان تذعنا .
أأرض الخيال وآياته ، وذات الجلال ، وذات السنا ،
تصير لفوغائهم مسرحا وتغدو لشذاذهم مسكنا ؟
فقل لليهود واشياعهم : لقد خدعتكم بروق المنى .
الا ليت (بلفور) اعطاكمو بلادا له ، لا بلادا لنا !
(فلندن) ارحب من قدسنا ، وانتم لمن شاء ان يسكنا ،
فان تطلبوها بسمر القنا نردكمو بطوال القنا ،
فني العربي صفات الانام ، سوى ان يخاف وان يجبنا .
وان تحجلوا بيننا بالخداع فلن تخدعوا رجلا مؤمنا ،
وان تهجروها فذلك اولى فان فلسطين ملك لنا ،
وكانت لاجدادنا قبلنا ، وتبقى لاحفادنا بعدنا ،
وان لكم بسواها غنى ، وليس لنا بسواها غنى .
فلا تحسبوها لكم وطنا ، فلم تك يوما لكم موطنا،
وليس الذي نبتغيه محالا ، وليس الذي رمتمو ممكنا .
واذا ابيتم فاوصيكمو بان تحملوا منكم الاكفنا ،
فانا سنجعل من ارضها لنا وطنا ، ولكم مدفنا .

ونأخذ مثلا اخر في الفرق بين الادب بمفهومه العام والادب بمفهومه الخاص – هو مشكلة اللاجئين . فالدكتور سيد نوفل ، الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية يكتب (في تقديمه لكتاب « مشكلة اللاجئين العرب » للدكتور ادوارد سيدهم) :

« مشكلة اللاجئين العرب هي في الواقع مشكلة الشعب العربي الفلسطيني ، الذي اخرج من وطنه بغيا وعدوانا ، لتحتله جماعات من اليهود المواطنين في بلاد مختلفة بارجاء العالم .

« فاللاجيء الفلسطيني العربي يسمى كذلك تجوزا ، اذ ليس لمثل هذا اللجوء نظير في تاريخ البشرية ولا في القاموس السياسي .

« وكل ما عرف من ألوان اللجوء الاخرى ، نتيجة الاضطهاد على اساس الجنس او الدين او السياسة ، لا يمت الى هذا اللون الفريد من اللجوء . الذي يسمى به الشعب العربي الفلسطيني مجازا او احالة.

« ولا يمكن لذلك ان تحل مشكلة هؤلاء اللاجئين العرب ، كما حلت مشكلة اللاجئين في اوروبا وآسيا وغيرهما ... فقضيتنا قضية شعب اخرج من وطنه بوسائل استعمارية عدوانية ، ولا بد ان يعود الى الوطن ، وخاصة في هذا العصر الذي يسمى بحق عصر تصفية الاستعمار.

« واذا كانت مشكلة اللاجئين هي مشكلة فلسطين ، لم يكن عجبا ان تبذل اسرائيل والصهيونية السياسية العالمية والاستعمار والاستغلال الاجنبي الطامع في المنطقة العربية لم يكن عجبا ان تبذل هذه القوى العدوانية – متحالفة متآمرة – الجهود المتصلة في هذه السنوات الخمس عشرة ، لتصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين ، سبيلا لتصفية قضية فلسطين ، والقضاء على حقوق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الطبيعية المشروعة الى وطنه السليب » .

وحين يتناول الادب الخاص قضية اللاجئين يقول مثلا على لسان ابو سلمى (ديوان اغنيات بلادي) :

زحفت الثم ارضي وهي باكية والقلب باك وراحت تنتشي القبل

وعدت انشق من عطر التراب هوى   في طله التقت الاجداد والرسل
اهلي على الدهر تدميني جراحهم   في حبهم يتساوى العذر والعذل
خيامهم في مهب الريح معولة   ودورهم من وراء الدمع تنتهل
تقاذفتهم دروب العمر دامية   وانكرتهم ربوع الاهل والملل
على المشارف اعراض ممزقة   وفي كهوف الربى الانسان مبتذل
في كل ارض شظاياهم مشردة   وتحت كل سماء معشر ذلل
اطوف احمل انى سرت نكبتهم   كانني طيف سار والحتمي طلل
يا فتية الوطن المسلوب ، هل امل   على جباهكم السمراء يكتمل ؟
انتم بنو الشعب،لا الطغيان يرهبكم   ولا زعيم على الشيطان يتكل
تبنون امجاده ، والخلد رفرفها   كانما هي بالاباد تتصل
ا نالطريق الى العلياء مظلمة   ولن نضل وفي ايديكم الشعل

ويقول محمود حسن اسماعيل (ديوان نار واصفاد)

تلفتي ها همو في الارض اخوتنا   تعاورتهم خطوب الدهر والغير
كانوا باوطانهم كالناس ، وانتبهوا   فما همو من وجود الناس،اذكروا
مشردين بلا تيه ، فلو طلبوا   تجدد التيه في الافاق ما قدروا
بلقى الشريد لجاج الارض واسعة   لكنهم بمدى انفاسهم حشروا
في خيمة من نسيج الوهم لفقها   ضمير باغ بمجد العرب يأتمر
اوهي واوهن حبلا من سياسته   لو مسها الضوء لانقدت بها الستر
تعدو الرياح بها نشوى مقهقهة   كانها بشقوق النمل تنحدر
او انها حين تذروها سنابكها   اضغاث شيء تلاشى ما له اثر
تهتز ان ذاقت الاحلام صفحتها   بنسمة بظلال الخلد تأتزر
وتنشب النعر في الاوتاد هاربة   في صدر ساكنها ان زارها المطر

وارجو الا يكون من الغرور ان اقتبس هنا لنفسي بعض ما قلت في وصف اللاجئين على اثر زيارة لهم :

كل حلم جدنا به للئيم   كان ضعفا وذلة واثاما
غفلت عنهم الضمائر حتى   حققوا بالخيانة الاحلاما
واذا ما شربت كاس خداع   من عدو فقد عضضت اللجاما
واذا ما حنيت ظهرك ذلا   فاقبل السرج فوقه والحزاما
شردوا اهلنا ، وقد ابدلوهم   من بيوت ومن قصور خياما
يتموهم طفلا وكهلا جميعا   ان يتم الاوطان انكى غراما
يطعمون الهوان نصف عرايا   من ثياب لا تستر الاجساما
ان رأوا مزقة لتستر صدرا   لم يبالوا الا يروا اكماما
يلبسون النهار حتى اذا ما   اقبل الليل يلبسون الظلاما

ونتقل الان الى مثال اخر في الادب الفلسطيني لنرى كيف يعالجه المؤلف الفني ، وكيف يعالجه الاديب الفنان .

فموضوع الهجرة الى فلسطين قد استوعب عديدا من الكتب ومئات من المقالات ، كما استوعب مئات من القصائد . ففي كتاب الدكتور احمد معوض مثلا « لن تكون لاجئين » يكتب المؤلف :

« يعتقد الصهيونيون ان اسرائيل ولدت لتستوعب كل يهود العالم. واكد ذلك القول صراحة كتاب « حقائق عن اسرائيل » (الذي اصدرته مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية سنة ١٩٥٧) اذ اعلن ان « سياسة الباب المفتوح ستبقى على الدوام السياسة القومية ، فعندما تتعرض جماعة يهودية للتهديد في مكان ما من العالم ، فثمت استعداد دائم لترحيلهم الى اسرائيل بغض النظر عن تكاليف ذلك . » اما بن غوريون فقد اعاد تاكيد ذلك في اول فبراير ١٩٥٩ اذ قال : « ان بقاء اسرائيل وسلمها لن يكفل الا بشيء واحد فحسب ، الا وهو الهجرة الجماعية.»

« وفي الواقع ان ثمة اسبابا تدفع الصهيونية الى هذه الهجرة الجماعية . وفي مقدمة هذه الاسباب الحصول على طاقة بشرية تصلح للدفاع عن كيان اسرائيل من ناحية ، وللاستعداد للتوسع والعدوان من ناحية اخرى . ولذلك حصرت سلطات اسرائيل سن المهاجرين فيما بين (١٤) سنة و (٤٠) سنة ، واشترطت ان يكونوا من المدربين عسكريا ، ومن اصحاب المهن الفنية والتدريبات الصناعية . وهي بذلك ترمي الى ضرب عصفورين بحجر واحد . فهي توفر نفقات التدريب والتأهيل الداخلي ، وتستغني عن ايفاد البعثات للخارج . اذ ان في تجميع الصهيونيين المؤهلين من مختلف البلدان ما يزيد من المستوى العلمي والثقافي في البلاد . »

ويكتب في الموضوع نفسه الدكتور صالح الاشتر في كتابه « في شعر النكبة » فيقول :

« فما يكاد الجنرال اللنبي يدخل القدس حتى يستقبل في مركز قيادته بالرملة اللجنة الصهيونية القادمة لدراسة الوضع في فلسطين، ثم تنطلق الالة الصهيونية تجمع المال لتشتري الاراضي العربية من اصحابها باي ثمن ، وتسجلها ملكا ابديا للامة اليهودية جمعاء ، ثم تقسمها قطعا وتؤجرها الى المهاجرين القادمين ، وتمنحهم القروض لبناء المساكن ، وتساعدهم على الاستيطان ، في ظل وارف من عطف حكومة الانتداب الانكليزية . وفي اشهر قليلة كانت الارض الجرداء تتحول الى مستعمرات زاهية وجنات عامرة بالمواطنين المهاجرين العاكفين على تعلم اللغة العبرية ، والخاضعين لعملية صهر قومي تجمع اشتاتهم وتنسق امورهم وتوحدها .

« ونظم اليهود انفسهم في وكالة يهودية ترعاهم وتحمي مصالحهم، تشتري الارض ، وتبني المستعمرات ، وتفوز بامتياز البحر الميت وثروانه، وتبني لليهود ميناء خاصا في تل ابيب ، لتجارتهم واقتصادهم ... واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ، ويستعدون للمعركة المقبلة ، ويستقبلون كل يوم افواج المهاجرين من كل صوب ، فيزدادون قوة وتنظيما . »

ولا شك اننا نلاحظ الفرق بين النصين ، فثانيهما مع عرضه التاريخي ادخل في الاسلوب الادبي ، وان كان لا يدخل في مفهوم الادب بمعناه الاخص ، ذلك المفهوم الذي نجده في النصوص الشعرية التي تعرض لموضوع الهجرة اليهودية ، فلا تهتم بالتواريخ ولا الاحصاء ولا اسماء الامكنة ، وانما هي تصوير للخطر ، وتجسيم للظلم والعدوان .

فهذا جورج صيدح يقول في لوعة واسى :

اضيف الهنا ، ان بيتي المباح   صغير يضيق بضيف الهنا
وزادي ـ اعيذك منه ـ جراح   اغمس فيه فتات الغنى
شهرت عليك لساني الصراح   فاعيا ، أأطول منه الغنا ؟
سالتك بعد الغدو الرواح   عسى البين يصلح ما بيننا
وما ضر لو زرت تل السفاح   وعشعشت بين وكور الخنا ؟
هنالك سربك يجني الرياح   ولا يسأل اللص عما جنى
كرهتك ضيفا دجى الوشاح   دجى الحواشي دجى المنى
اذا وصفتك القوافي الفصاح   دعوت عليها بان ترطنا

وهذا ابراهيم طوقان يقول في قصيدة جعل عنوانها « الرقم ...١» ولكنه طبعا يستعمل الرقم هنا بمفهومه البلاغي لا بمفهومه الرياضي ، على مثال استعمال القرآن الكريم للعد في قوله تعالى : « وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون » ، وكقوله « استغفر لهم ،او لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . » فالمراد هو الكثرة المطلقة . يقول :

ارى عددا في الشؤم لا كثلاثة   عشر ، ولكن فوقه في المصائب
هو الالف، لم تعرف فلسطين ضربة   اشد وانكى منه يوما لضارب
يهاجر الف ، ثم الف مهربا   ويدخل الف سائحا غير آيب
والف جواز ، ثم الف وسيلة   لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر الاف كأن عبابه   وامواجه مشحونة بالمراكب
بني وطني ، هل يقظة بعد رقدة   وهل من شعاع بين تلك الغياهب!

وعلي الجندي يصف هجرة اليهود بالداء النازل بالجسم السليم، وبالجراد الذي ياتي على الاخضر والهشيم :

صهيون داء اساة الداء ترهبه   لا تعدلن به سلا ولا جربا
وهو الجراد اذا اخنى على بلد   رعى ازاهيره واستأصل العشبا
ارجاله في فلسطين اذا بقيت   ـ لا قدر الله ـ ساء الشرق منقلبا

واختتم مقارناتي بين اسلوب الادب الخاص والادب العام في قضية فلسطين بمثال له اكثر من مغزى :

فقد كتب الدكتور سيد نوفل في كتابه ((السياسة العربية في مقاومة اهداف الصهيونية واسرائيل)) (يونيه ١٩٦٣) فصلا عن دور المرأة العربية في قضية فلسطين قال فيه :

((ودخلت المرأة العربية ميدان الدفاع عن فلسطين . ومن اجل القضية العربية الاولى دعت رئيسة الاتحاد النسائي المصري الى عقد اول مؤتمر نسائي عربي في التاريخ . وقد اشتركت فيه مندوبات عن سيدات مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين والاردن ، واتخذت فيه مقررات تؤيد قضية فلسطين وكفاح الفلسطينيين ومقاومة التقسيم ومعاونة الفلسطينيين ماديا وادبيا)) . وكان هذا المؤتمر في سنة ١٩٣٨ وقد وصفه الشاعر محمد الاسمر بقصيدة جاء فيها :

يا بنات الشعر غني واهتفي ... للنجيبات بنات النجب
زانهن الله بالفضل ، فما ... حلية من فضة او ذهب
وكساهن من الاداب ما ... دونه كل الثياب القشب
قلت للقائل ((ودعهن) : لا ... هن في القلب فرحب رحب
من حواه القلب لم ينأ وان ... حل في بغداد او في حلب
مصر ليست للعدو الاجنبي ... مصر ملك للحبيب الاقرب

وبعد فقد بقي أن اشير سريعا الى بعض المجالات الاخرى في الادب الفلسطيني وانا ادرك ان كلا منها جدير بعدد من المتحدثين . فاذا اوجزت فانما اوجز خضوعا لقيود الزمن .

فهناك القصة والمسرحية ، وفيهما من الادب الفلسطيني وفرة وافرة . ولولا حذري من ان اغفل بعض الكتاب لعددت العشرات منهم ، ولكنني لا استطيع ان اغفل اسم يوسف السباعي ، وعلي احمد باكثير وبرهان الدين العبوشي ، وحنا ابي راشد ، وعبد الحميد جودة السحار ، وهلال ناجي ، وبديع حقي . وقد فاز الدكتور بديع حقي ، منذ بضع سنوات ، بجائزة الدولة التشجيعية في القصة من المجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، وذلك عن مجموعة قصصه عن فلسطين .

ومما هو جدير بالتنويه ان هذا المجلس ، منذ عشر سنوات ، يقيم في كل عام مسابقات ادبية عن فلسطين ، في المقال ، والبحث الموجز ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ذات الفصل الواحد ، والشعر. وترد اليه مئات النصوص ، ويفوز في كل فرع من هذه الفروع عشرة من المتسابقين . كما ان نادي القصة ، في مسابقاته السنوية تتقدم اليه قصص عن فلسطين .

واريد ان انوه كذلك بالبحوث العلمية التي تكتب عن ادب فلسطين بمفهوميه الخاص والعام . فهناك عدد ليس بالقليل من انتاج الاساتذة وطلاب الدراسات العليا . واذكر على حذر من النسيان وخوف من الاطالة بعضهم مثل الدكتور ناصر الدين الاسد ، والدكتور محمد طلعت الغنيمي ، والدكتور صالح الاشتر ، والدكتور عبد الملك عودة ، والدكتور اسماعيل راجي الفاروقي ، والدكتور عبد الحميد متولي ، والاستاذ محمد عزة دروزة ، والاستاذ كامل السوافيري .

وهناك الادب المسموع في الاذاعة الصوتية والمرئية ، وهو ادب يصل الى عشرات الملايين من الناس ، ولا يمكن ان تناقشه في ذلك مطبعة او ناشر . وقد جمعت من الاذاعة المصرية بيانات تذهل وتسعد ، في كميتها وتنوعها ، سواء في البرنامج العام ، او في صوت العرب ، او في برنامج مع الشعب ، او البرنامج الخاص باذاعة فلسطين . وفي كل من هذه البرامج ، الاحاديث التي يعدها المتحدثون المتخصصون ، والتعليقات والندوات ، والتمثيليات ، والاناشيد ، والاغاني . وكل فرع من هذه الفروع جدير بالدراسة والتنويه ، ولكن ابهر ما وقفت عليه هو البرنامج المسمى ((بلادنا لنا)) وهويتناول بالتعريف كل قرية او مدينة بفلسطين ، ويبرز معالمها الطبيعية ، ويتحدث عن نضالها ، كما ان الى جانبه برنامجا اخر باسم ((فداء فلسطين)) يتناول اسماء الشهداء واعمال البطولة .

واخر ما اختتم به كلمتي هو الاشارة مرة اخرى الى الادب السياسي — غير محدود بالمقالات والتحقيقات الصحفية — بل اضمنه الادب السياسي الرسمي ، فهو عنصر هام في حياة قضيتنا الكبرى ، فالتصريحات والخطب والبيانات التي يدلي بها رؤساء الدول العربية وملوكهم ، ورؤساء الوزارات والوزراء ، والخطب والمناقشات وكل ما يتصل بها — كل ذلك رصيد ادبي ضخم ، ذو شحنة قوية فعالة في خدمة القضية الفلسطينية ، سواء في ذلك مجال التوعية العربية نفسها ، بابقاء الشعلة متقدة لتضيء لابناء العروبة ، وكذلك مجال الدعوة والاعلام لمن يجهلون او يتجاهلون حقائق الوضع العربي الفلسطيني ، بابقاء الجذوة ملتهبة لتحرق كل من يجترىء على حقوقنا او يساعد في هذا السبيل .

ان البيان الذي القاه في مجلس الامة ، في الاسبوع الماضي ، السيد علي صبري رئيس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة ، عن الازمة مع المانيا الغربية ، هو من الادب السياسي المتصل بصميم قضية فلسطين ، وان الخطب والتصريحات التي صدرت عن الرئيس عبد السلام عارف ، بصدد فلسطين ، هي كذلك من الادب السياسي الذي يأخذ مكانه في التاريخ لادب هذه القضية .

وقد نشر في القاهرة مجلد يضم مقتبسات من الادب السياسي الفلسطيني . جمعت من اقوال الرئيس جمال عبد الناصر . ولا يليق ان انتقصها قدرها باقتباس شذرات قصيرة منها ، فهي مجموعة جديرة بالقراءة المتئدة ، والدرس الفاحص ، على حدتها . وحسبي في بيان قدر هذه المجموعة انها تدل على ان مؤلفها قد صدر فيها عن ايمان يكفي في الدلالة على مبلغ رسوخه وعمقه انه لم يخطب خطبة ، او يصدر بيانا ، او يعط حديثا لصحفي عربي او اجنبي — ايا كان موضوع الخطبة او البيان او الحديث — الا سلكفيه سبيله الى قضية فلسطين.

فسواء كان يخطب في مصر او في سورية ، في القاهرة او في دمشق ، في الاسكندرية او في اللاذقية ، في بور سعيد او في حلب ، في الاتحاد السوفياتي او في الهند ، في تونس او في الجزائر ، في القوات المسلحة او في الجمعيات التعاونية ، في العمال او في الطلاب، في مصنع المطاط او في الكشافة ، في مجلس الامة او في المجلس التشريعي لغزة ، في الاحتفال بعيد الثورة او في الفلاحين حين توزيع الاراضي على المعدمين ، في اعلان الدستور او في مجلس اتحاد الدول العربية ، في الازهر او في الكلية الحربية ، في مؤتمر المحامين او في مؤتمر الصحفيين في عيد النصر او في الاحتفال بالسد العالي ، في توزيع الجوائز العلمية او في المهرجان الرياضي ، في الامم المتحدة او يوم يعلن قبوله لترشيح الامة الاجماعي لتجديد رئاسته للجمهورية — سواء في كل ذلك ، وقبل كل ذلك في كتابه الاول ((فلسفة الثورة)) ، وفي وثيقته التاريخية ((الميثاق الوطني)) — لا ينسى فلسطين الحبيبة، فلسطين السليبة فلسطين الابية ، فلسطين العربية ، التي قال عنها في كتابه لرئيس امريكا السابق كندي :

((اسمحوا لي ان اضع امامكم هذه الملاحظة التالية ، علها تساعد مترابطة على توضيح صورة سريعة للمشكلة :

((لقد اعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان — من لا يملك ومن لا يستحق — بالقوة والخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه ، فيما يملكه وفيما يستحقه . تلك هي الصورة الحقيقية لوعد (بلفور) الذي قطعته بريطانيا على نفسها ، واعطت فيه من ارض لا تملكها ، وانما يملكها الشعب العربي ، عهدا باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . وعلى هذا المستوى الفردي ، فضلا عن المستوى الدولي ، فان الصورة على هذا النحو تشكل قضية نصب واضحة تستطيع اي محكمة عادية ان تحكم بالادانة على المسؤولين فيها)).

الدكتور مهدي علام